غابر الاندلس وحاضرها

(١٦) مدينة اشبيلية

على شاطيء الوادي الكبير في اجمل بقاع الاندلس واعدلها هواء وازكاها تربةً قامت هذه العاصمة التي كانت من اعظم مدن الاندلس بعد سقوط قرطبة في ايدي الاسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور . وليس اليوم في اشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجيرالدا او منارة الجامع الاعظم وهي العجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربي من سنة ١١٨٤—١١٩٦ لابي يوسف ابن يوسف من دولة الموحدين وهي من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت في الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و٥٥ سنتمتراً ويزيد سمك الجدران على متر ين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسبان بعد خروجهامن ايدي العرب وهي الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال في ذيل اللباب : فدخل (يعني امير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية في غرة صفر سنة ٥٩٣ فاخذ في اتمام بناء الجامع وتشييد مناره وعمل التفافيح من املح مايكون من عظمة لا اعرف له قدراً الا ان الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من اسفلها وزنة العمود الذي ركب عليه اربعون ربعاً من الحديد وكان الذي صنعها ورفعها في اعلى المنار المعلم ابو الليث الصقلي وموّهت تلك التفافيح بمائة الف دينار ذهباً اه .

ومن اجمل ما في كنيسة اشبيلية اليوم والجامع امس ناقوس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولمبس الملاح الجنوي الذي اكتشف اميركا يحمله من اربعة اطرافه ملك قشتالة وملك ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان في كنيسة هافان ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان تحررت كوبا من اسبانيا .

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه اكثر من ثمانية امتار وقد قال

الفرنجة فيها : ليست الجيرالدا ولا سائر مصانع اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هي التي اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذي سار فيها « من لم يراشبيلية لم يرغريبة » بل ان ما اشتهرت به في جميع اسبانيا مظاهر سرور الحياة فيها من مراقص وافراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التي تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدي منصور بن عبدالمؤمن بين العالم ابي الوليد بن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه : ماادري مانقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . وبهذا عرفت ان اشبيلية بلدة طرب وسرور في معظم ادوارها . ولطبيعة الاقليم دخل كبير في هذا الشأن .

في اشبيلية قصور كما في قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت في اعطافها وهي ملك لاناس من اغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم الى سيد ومنها ما جعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل اليه جعل ينقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل الى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلاً من النقود لتصرف منه على الترميم فليس في البلاد ما يعنى الناظر اليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار الا اذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التي قامت في كل ناحية من انحاء البلاد التي ظل فيها حكم العرب نافذاً دهراً طويلاً .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت في ايدي الاعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة الف مسلم الى قرطبة وجيان و بلنسية وغرناطة حيث كانت راية بني نصر تخفق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العدد . وسكانها اليوم ١٤٨ الفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القديم الا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها الى الحضيض .

(١٥) مدينة غرناطة

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

هذا ما قاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ما حكمته العرب من ارض الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمروها فادهشوا العالم بعمرانها . جاءها جميع المسلمين الذين لم يحبوا ان يبقوا في البلاد التي وقعت في قبضة العدو يحتمون بملوكها من بني نصر جاؤها الوفاً الوفاً من قرطبة واشبيلية وبلنسية يحملون اليها ما كان مبعثراً من الصنائع والثروة في تلك الارجاء .

قالوا ان غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة اربعين ميلاً يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . وحكى ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى اهل دمشق بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد اطل عليها جبل الثلج Sierra Nevada — كما اطل جبل الثلج او جبل الشيخ او جبل حرمون على دمشق — وفي ذلك يقول ابن جبير :

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الانهار تجري وهي تنصب اليهـا

قال ابن سعيد اشار ابن جبير الى ان غرناطة في مكان مشرف وغوطتها تحتهـا تجري فيها الانهار ودمشق في وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنة تجري من تحتها الانهار . اما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق باشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء مرداء ولذلك كان منظرها اشبه بمنظر سهل البقاع اذا اطللت عليه من سفوح لبنان الغربي .

وغرناطة في كورة البيرة من اشرف كور هذا الاقليم نزلها جند دمشق .

قال الرازي : وخص البيرة اي سوادها وريفها لا يشبه بشيء من بقاع الارض طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وخصها اي خص غرناطة الافيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالي قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الانهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات في ذرع اربعين ميلاً ونحوها تنبو العين فيها عن

وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب والجبال المتطامية منه بشكل ثلثي دائرة قدعلت منه المدينة فيبلي المركز من جهة القبلة مستندة الى اطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال .

وينزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهراً كما تنبجس من سفوحه العيون . قال ابو الحجاج ابن حسان :

احنّ الى غرناطة كلما هفت نسيم الصبا تهدي الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل تنهل سحب ماؤهن هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها وارض بها قلب الشجيّ مشوق
اغرناطة العلياء بالله خبري : اللهائم الباكي اليك طريق ؟
وما شاقني الا نضارة منظر وبهجة داء للعيون ترقرق
تأمل اذا املت حوز مؤمل ومد من الحمرا عليك شقيق
واعلام نجد والسكينة قد علت وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرنداً مهنداً نضى فوق در ذر فيه عقيق
اذا نم منه طيب نشر اراكه اراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور اقاح في الرياض انيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الاحمر من دولة بني نصر بالسيف تارة وبحسن السياسة مع الاحزاب المعادية او بمحالفة القشتاليين الاسبانيين وبني مرين المراكشيين تارة اخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطناً لهم ونشطملوكها الصنائع والتجارة وعمروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها فاتم الثاني ما بدأ به الاول وزينوا البلاد بابنية بديعة فاصبحت غرناطة اغنى مدينة في شبه جزيرة ايبريا وبحكمة امرائها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية في اسبانيا وانست عنايتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء واصبحت قصورهم مثابة العلماء والادباء والفلاسفة « فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوي اليه العساكر والجنود » ولما استولى عليها الاسبان سنة ١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة اشهر فنيت في خلالها ازواد المحاصرين من العرب وفنيت خيلهم كما فني كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات

— كان سكانها نصف مليون نسمة (نفوسها اليوم ٧٦ الفاً) فانحطت على عهد الاسبان بعد حين واقفرت من السكان بما اصدره الملوك الكاثوليك من الاوامر الخرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان التفتيش الديني ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الابراج بلغت الى ماينا عشر اربعة عشر الفاً وكان في جوارها مابنيف على ثلاثمائة قرية عدا مايجاور الحضرة من قرى الاقليم او ما استضيف اليها من حدود الحصون المجاورة « وكان اكثرها امصاراً فيها ماينا عشر خمسين خطبة تنصب فيها الله المنابر وترفع الايدي وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الارحاء الطاحنة بالماء مابنيف على مائة وثلاثين رحى »

« ١٦ » قصر الحمراء

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
او ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه اضحى يدل على عظيم الشان

الحمراء و يقال لها القصبة الحمراء ومعنى القصبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهي مطلة على مدينة غرناطة اطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق . سميت بالحمراء لاحمرار جدرانها بل للون التربة التي قامت عليها في سفح جبل غرناطة ومعظمها مبني بالخزف والكلس والحصباء . وفي قصبة الحمراء قصور العرب وهي ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الاكمة وقد بني كل قصر منها في زمن غير زمن القصر الآخر و بقي من القصر الاول شيء قليل وهي المقصورة والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بني نصر قال فيه ابن الخطيب ان اعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء على ماهو عليه من الظرف والتنجيد والترفيش ونخامة العمل واحكام انواع الفضة وابداع اثرها انفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له تتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم او دار السلطنة يقعد فيه للمظالم و يستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر

الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلاً وكان فيه دائرة حرمه ومساكنه الخاصة وفي هذا القصر صحن الاسود وهو في الجزء الاوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه الى الشمال امام المدخل وهي تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت في كل نافذة وسطى اعمدة صغيرة من العجمي او الشمسية تدفع حرارة الشمس . ونقش هذه القاعة من اجمل ماحوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطري على الجدران في قوالب من حديد وهي الى الحمرة والزرقة المشبعة .

اما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثنا عشر اسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من افواهها وتسيل الفوارات من اعلى الصحن الذي جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من احواض بيوت دمشق القديمة وكان ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك نادبك الذي ... اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره ... اعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه ... فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي الصبيح مع المليح بذكره ... وسما فناق خورنقاً وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه ... ماكان شيئاً عنده مذكورا
اعيت مصانعه على الفرس الاولى ... رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ... لملوكهم شبهاً له ونظيرا
اذكرننا الفردوس حين اريتنا ... غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا اعمالهم ... ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت ... حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه ... حقر البدور فاطلع المنصورا
ابصرته فرأيت ابدع منظر ... ثم اثنيت بناظري محسورا
وظننت اني حالم في جنة ... لما رأيت الملك فيه كبيرا

واذا الولائد فتحت ابوابه جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم فغرت بها افواهها تكسيرا
فكأنهما لبدت لتهصر عندها من لم يكن بدخوله مأمورا
تجري الخواطر مطلقات اعنة فيه فتكبو عن مداه قصورا
تبرخم الساحات تحسب انه فرش الملا وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه مسكاً تضوع نشره وعبيرا
يختلف الاصباح منه اذا انقضى صبحاً على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها واذاب في افواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ناراً والسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فتقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناي بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صولجت اغصانها فكأنما قنصت لهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوافع طيرها ان تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خُرس تعدُّ من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة لانت فأُرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موضع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما جُعلت لها زُهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبراً نظَّروا بالنقش بين شكوله لنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت فلك النهود من الحسان صدورا

خلعت عليه غلائلاً ورسية شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ابصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعه اقلامها فارتك كل طريدة تصويراً
وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأن ماء اللازورد مخرم باكخط في ورق السماء سطوراً
وكأنما وشوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذي اضحى له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بني سراج والمقصورة . تخرج من واحدة فتدخل في اخرى فتخالك في جنة عالية قطوفها دانية لاتستطيع وصفها لبدائعها الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الاختين كانت على مايظهر لجلوس نساء الملك في الشتاء ونقشها من اقصى مابلغه النقش العربي من الاتقان واهم مافيها المقرنص الذي حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها مجموع يضعب وصفه لجماله وقبتها اعجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها كانت في يد صانعها كالمجين يعمل فيها ماشاء من الصور او كأنها خلقت خلقة ولم تمسسها يد بشر .

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهي حديقة كبرى فيها جميع اشجار القطر وازهاره قامت هندستها في منحدراتها واكمتها وبسائطها على اسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومغاور ومخابئ وفوارات وسياج تشبه المصايف الايطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة يدعونها سروة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت امرأة ابي عبد الله مع ابن سراج .

ولقد كان للسلطان اوائل المئة الثامنة في غرناطة ماينافس مائة جنة مثل جنة العريف على مارءى صاحب الاحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك في الحقيقة من امارات المدنية والرفاهية .

ورد ذكر الحمراء لاول مرة في واقعة حدثت سنة ٢٧٧ هـ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الاسبانيين فنجا الامير الاموي بحيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون الى هذا القصر . واشتهرت الحمراء على عهد دولة بني نصر او بني الاحمر الذين استقلوا بامارة غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم فانشأ محمد بن الاحمر قصره الملكي بالقرب من السور والقلعة وفي عهد الامبراطور شارلكان جعل جامع الحمراء كنيسة فابدلت صورة القصر الملكي القديم وانشئ باب المدخل الذي يجتاز منه السور الذي طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة ابراج .

وقالوا ان فرديناند وايزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتنما فرصة اختلاف العرب وامرائهم وعزما على اخراج جميع العرب من اسبانيا وقد امرا بترميم نقوشها الداخلية ورمما جدرانها وكان شارلكان على شدة حرصه على آثار الحمراء والابقاء عليها عمر مباني ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم واوردوا في معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية مانسب اليه من القول عندما وقع بصره على آثار الحمراء : يالشقاء من اضاع كل هذا .

جاء في دائرة المعارف الاسلامية : واذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التي بنيت على ذاك العهد في القاهرة مثلاً كجامع السلطان حسن الذي بني سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة امثالاً كثيرة في حين بني قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد في مملكة من الممالك قصر اسلامي مثل الحمراء وبقدمه لم يبن له شبيه مع انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم الا ابنية العصر الاموي التي عثر عليها الباحثون في بادية الشام شرقي بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي في سامرا والرقة .

وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الابصار وفي مسالك الابصار : ان الحمراء كثيرة المباني الضخمة والقصور ظريفة جداً يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من ابدع

الجوامع حسناً واحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه احجار ياقوت مرصعة في جملة مائق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والابنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها الى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم انك لاتعرف ما ادخلوه فيها من الاصلاح ولا تميزه عن الاصل الذي كانت عليه من قبل . ودام هـذا الترميم في الحمراء الى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفي سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة ارضية وفي سنة ١٥٩٠ بحريق في مخزنة بارود سببت خراب اقسام منها ثم تركت وشأنها في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابوليون سنة ١٨١٢ قسماً منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا ثم اخذت همة حكومة اسبانيا تتجدد لاعادة الحمراء الى حالتها الاولى .

ويقول جوسيه ان ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصومهم معاملة اعداء بل معاملة اصحاب . وبعد ان ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا الى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال : واهتمت الحمراء من بدء القرن السابع عشر الى اواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود بياطرة وارباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسرات فقيرة فكانت الاوساخ فيهـا وفي جدرانها والناس يعبثون بما فيها وربما اصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها و بليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا على تعهد تلك القصور وارجاعها الى حالها وكانت الهمة في هذا الشأن تفتر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم .

وفي هذا القصر او المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارلكان اراد ان يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من الجزية التي كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم باجراء بعض شعائرهم . ومن اعمال شارلكان ابنية لم تتم لقلة المال فيما يظهر والغالب انه حاول بما انشأه من الابنية ان يطمس آثار العرب ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ما اراد وبقيت الحمراء اجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور .

وليس في الحمراء من الفرش والاواني الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها

اكثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردي وذهبي رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهي من صنع معامل غرناطة في القديم .

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه الى يومنا هذا وهو مقصد السائحين من اهل الارض وكان ابن حمديس وصفه اذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصّر ... عن وصفه في الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة ... تُعشي العيون بشدة اللمعان
لايرتقي الراقي الى شرفاته ... الا بمعراج من اللحظان
عرج بارض الناصرية كي ترى ... شرف المكان وقدرة الإمكان
في جنة غناء فردوسية ... محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجمر من نارنجها ... فكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر احمر ... جعلت صوالجها من القضبان
ان فاخر الأترج قال له ازدجر ... حتى تجوز طبائع الأيمان
لي نفحة المحبوب حين يشمني ... طيباً ولون الصب حين تراني
مني المصبَّغ حين يبسط كفه ... فبنان كل خريدة كبناني
والماء منه سبائك فضية ... ذابت عَلَى درجات شاذروان
وكأنما سيف هنـاك مشطب ... القته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه بطيل تعجباً ... من دوحة نبتت من العقيان
عجباً لها تسقي الرياض ينابعاً ... نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فنن لهـا ... حسنت فافرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغةً ... وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أُتيح لها الكلام تكلمت ... بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة ... فخر الجماد بها على الحيوان
اوفت على حوض لهـا فكأنها ... منها الى العجب العجاب رواني
فكأنها ظنت حلاوة مائها ... شهداً فذاقته بكل لسان
وزرافة في الجوف من أُنبوبها ... ماء يريك الجويَ في الطيران

مركوزة في الرمح حيث ترى له ... من طعنه الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمي السماء بمندق ... مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نقطاً أحرقت ... في الجو منه قميص كل عنان
في بركة قامت على حافاتها ... أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها ... فلذلك انتزعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفئ ... ناراً مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من افواهها ... يطرحن انفسهن في الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تختها ... اخذت من المنصور عقد امان
كم مجلس يجري السرور مسابقاً ... منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحةً ... فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سمكها علوية ... وقبابه فلكية البنيان

(١٧) كتابات الحمراء

نقرأ في قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والاشعار زبرت على الحجر او بالجص بالخط الاندلسي المشبك وهو اقرب الى النسخ المتعارف في هذه البلاد الشرقية منه بالخط المغربي ومما نقرأه على احد الابواب « امر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة اسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على الايام مولانا امير المسلمين السلطان المجاهد العادل ابو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس ابي الوليد ابن نصر كافى الله في الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل اعماله الجهادية فشيد ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وار بعين وسبعمائة جعله الله عزة واقية وكنبه في الاعمال الصالحة الباقية . »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على نعمة الاسلام » ومنها « عز لمولانا ابي عبد الله » ومنها « ولا غالب الا الله » ومنها « وما بكم من نعمة فمن الله » ومنها « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا ابي عبد الله امير المسلمين » ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها « فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين »

ومن الابيات التي رسمت على احدى القباب في مدح ابي الحجاج يوسف الاول

تبارك من ولاك امر عباده فاولى بك الاسلام فضلا وانعما
فكم بلدة بالكفر صبحت اهلها وامسيت في اعلامهم متحكما
وطوقتهم طوق الاسار فاصبحوا ببابك يبدون القصور تخدما
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة ففتحت باباً كان للنصر مبهما

. . .

ولو خير الاسلام فيما يريده لما اختار الا ان تعيش وتسلما

الى ان قال :

فامّنت حتى الغصن من نفحة الصبا وارهبت حتى النجم في كبد السما
فان رعشت زهر النجوم مخيفة وان مال غصن البان شكرك بما

ومنها : ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا وصيرت ما فيها لجيشك مغنما

وكتب في قاعة السفراء

انا محلاة عروس ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف فضل صدقي في مقالي
واعتبر تاجي تجده مشبهاً تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك في ضياء وجمال
دام في رفعة شأن آمناً وقت الزوال

وكتب ايضاً

وحكيت كرسي العروس وزدته اني ضمنت سعادة الازواج
من جاء في يشكو الظماء فموردي صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأنني قوس الغمام اذا بدا والشمس مولانا ابو الحجاج
لا زال محروس المثابة ما غدا بيت الإله مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحييك مني حين تصبح او تمسي ثغور المنى واليمن والسعد والانس
هي القبة العليا ونحن بنانها ولكن لي التفضيل والعز في جنسي

جوارح كنت القلب لاشك بينها وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس
وان كان اشكالي بروج سمائها فني عدا مابينهما شرف الشمس

ومما كتب ايضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم الوزير ابي عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين ابن الخطيب :

تبارك من اعطى الامام محمدا معاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع ابى الله ان يلفى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها تحلي بمرفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر غدا مثلها في الحسن ابيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد فلم ندر اياً منهما كان جاريا
الم تر ان الماء تجري بصفحها ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة تفيض الى الآساد منها السواقيا
وقد اشبهت كف الخليفة اذ غدت تفيض الى اسد الجهاد الايادي
فيا من رأى الآساد وهي روابض عداها الحياء ان تكون عواديا
و ياوارث الانصار لاعن كلالة تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً تجدد اعياداً وتبلى اعاديا

ومما كتب في احدى القاعات ايضاً من نظم الوزير ابن زمرك

انا الروض قد اصبحت بالحسن حاليا تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
اباهي من المولى الامام محمد باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فانه يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متنزه تجد به (؟) نفس الحليم الامانيا
تبيت له خمس الثريا معيذة ويصبح معتل النواسم رافيا
به القبة الغراء قل نظيرها ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا
تهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ولم تك في افق السماء جواريا

ولو مثلت في ساحتيها وسابقت الى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجب ان فاقت الشهب في العلى وان جاوزت فيها المدى المتناهيا
فبين يدي مولاي قامت لخدمة ومن خدم الاعلى استفاد المعاليا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللته بحليها من الوشي تنسي السابري اليمانيا
وكم من قسي في ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح اذ لاح باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الامثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
اذا ما اضاءت بالشعاع تخالها على عظم الاجرام منها لآليا
فلا تر قصراً منه انعم نضرة واعطر ارجاء واحلى مجانيا
مصارفة النقدين فيه بمثلها اجازيها قاضي الجمال التقاضيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها دنانير شمس تترك الروض حاليا

ومن الابيات المزبورة

وجاد بها برد الهواء نسيمها فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية تقبس عنها الشهب في الافق الاعلا
واني بهذا الروض عين قريرة وانسان تلك العين حقاً هو المولى

وفي الاندلس الى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وتربها وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر و بعضها مثال البلاغة والفصاحة لان الاندلسيين عاشوا ونعموا في ارض معتدلة الهواء جميلة الطبيعة فلا بدع ان جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت في كتابهم وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب . له بقية

محمد كرد علي